

الفصل الحادي عشر

من العثمانيين حتى محمد علي

سنحاول فيما يلي إلقاء نظرة سريعة على وضع عربان مصر وأحوالهم إبان الحكم العثماني الذي استمر طوال ثلاثة قرون، وانتهى بغزو نابليون بونابرت لمصر في سنة ١٧٩٨م، وما سجله علماء هذه الحملة الفرنسية عن القبائل البدوية في موسوعة "وصف مصر"، وسنتطرق في نهاية المطاف إلى موقف محمد علي من هؤلاء العربان.

١- العثمانيون والعربان:

لقد فتح العثمانيون صفحة جديدة في تاريخ من بقى من البدو في مصر، فطوال الحكم العثماني لمصر (١٥١٧-١٧٩٨م) هادن الحكام العثمانيون شيوخ العرب وحاولوا اجتذابهم إلى صفوفهم، وخاصة عربان الوجه القبلي، حيث كان بنو عمر وهم من الهوارة يحكمون الصعيد حتى (١٦٠٧م)، ولقد كانت مصر في تلك الأزمان في حالة من الانقلابات والمجاعات والأوبئة والأزمات المالية الخائفة، وقد كانت هذه الفترة التي استمرت ما يقرب من ثلاثمائة عام عبارة عن معركة مستمرة من أجل السلطة والسيطرة على إيرادات الضرائب بين نواب الملك - وهم الحكام - وبين فيالق الانكشارية وغربان والبكوات، وكانت القاهرة هي المحرك الأول لهذه الاضطرابات، ومن ثم فإن البدو قد ابتعدوا عن مسرح هذه الانقلابات والفتن ولكنهم لم ينجوا من بطش علي بك الكبير والذي عقد العزم على إبادة العربان جميعا للتخلص من شرهم، فقام بالتكثيف ببعض القبائل وقضى عليها، واضطر أكثرها إلى الفرار إلى الصحراء هربا من هذه المجزرة، وعلى بك الكبير هو نفسه الذي دافع عن قوافل الحج في شبابه ضد إغارات العربان عليها، وعلى

هذا يعلق الأستاذ أحمد لطفي السيد قائلاً^(١): "لقد كان على بك الكبير غير مصيب، لما هو ثابت من فائدة وجودهم (أي وجود العربان)، وعلى الأخص في ذهنه، لأن الجمل هو سفينة الصحراء، والعرب هم ربانو هذه السفن وقادتها في هذا الأوقيانوس الأرضي الذي لا أفق له، والعربان وحدهم هم الذين يسهل عليهم دون غيرهم اجتياز الفلوات الرملية المترامية الأطراف إلى أقصى مدى، والعربان هم الذين يقدرّون دون غيرهم أن يوثّقوا عرى المواصلات السريعة بين البلاد على خفافها، فبالاحتفاظ بهم تتم الاستفادة بالمزايا المتوافرة فيهم، والتي لا يجاريهم فيها مجارٍ".

٢- نظرة علماء الحملة الفرنسية إلى عربان مصر:

طالما أزعج عربان مصر جيش الحملة الفرنسية التي شنّها نابليون بونابرت على القطر المصري سنة (١٧٩٨م)، مما دفع هذا الأخير إلى قتالهم وكبح جماحهم بواسطة فرقة من الهجانة، قال بونابرت في مذكراته: "إذا كان موقع مصر الغريب، وهو البلد الذي يستمد ثروته من اتساع نطاق الفيضان، يقتضي حسن الإدارة لانتظام شئونه واستقامة أحواله، فإن ضرورة كبح جماح عشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً من اللصوص المعتصمين بفسيح الصحراء حيث تنالهم يد العدالة -- تدعو إلى أن تكون تلك الإدارة من مضاء العزيمة ومثانة القوة، بحيث توقع رهبتها في أفئدة أولئك الأشرار، فلا يعيثون في الأرض فساداً في تلك الأقطار"، وهو يقصد بذلك عربان الصحراء الذين كانوا يرون أنفسهم دائماً في حالة حرب لا يخدم ضرامها مع الحضر، فما بالك بالمعتدين الأجانب!! وقد برر الفرنسيون بمقولة بونابرت، فما كادوا يحتلون القطر حتى كسروا شكيمتهم وقبضوا على ناصيتهم.

وقد أحصى عدد العربان جميعاً على عهد الحملة الفرنسية^(٢)، فكانوا (١٣٠) ألفاً تقريباً، منهم (٢٧) ألف فارس، و (٤٠) ألف راجل.

(١) أحمد لطفي السيد، المرجع السابق، ص ٣٠.

(٢) كتاب الحملة الفرنسية، ج ١، ص ٥٩: ٦٢.

ويمكن توزيع القبائل العربية في الأقاليم المصرية في عهدها على النحو

التالي:

١- في مديرية المنصورة (٣) قبائل مستقرة من الدرجة الأولى؛ قبيلة حسن طوبار، وأخرون.

٢- في مديرية البحيرة، قبائل رحل من الدرجة الأولى؛ أولاد على وآخرون.

٣- في مديرية الشرقية، (١٥) قبيلة، منها (٤) رحالة من الدرجة الأولى؛ غنى وآخرون، و(٨) قبائل من الدرجة الأولى؛ العايد وآخرون، و(٣) قبائل مستقرة من الدرجة الثانية، أولاد رهير وآخرون.

٤- في مديرية القليوبية، قبائل مستقرة من الدرجة الأولى، وهي: الحويطات وآخرون. وقبائل مستقرة من الدرجة الثانية؛ الترابين وآخرون.

٥- في مديرية الجيزة والمنوفية، قبائل مستقرة ورحالة، الجوازي أو (الحوايس)، رحالة من الدرجة الأولى تحمل النظرون من واديه وتوزعه على جهاب القطر من مريوط إلى أسيوط.

٦- في الفيوم، قبائل مستقرة ورحالة، وكان يطلق عليها كلها اسم سمالوس.

٧- في بني سويف، الضعفاء وخويلد: مستقرتان في المنيا، محارب: مستقرة من الدرجة الأولى، والجوادي وقبائل أخرى بعضها مستقرة وبعض رحالة.

٨- في أسيوط، طرهونة والعطيات، مستقرتان من الدرجة الأولى، وقبائل أخرى رحالة.

٩- في جرجا والهواره وبني واصل، مستقرتان من الدرجة الأولى.

١٠- في قنا وأسوان، عبابرة وعليقات، الأولى رحالة، والثانية مستقرة،

وكلتاهما من الدرجة الأولى^(١).

(١) انظر: أحمد لطفي السيد، قبائل العرب في مصر، القاهرة، ١٩٣٦، ص ٢٤: ٢٥.

وقد قسم الأستاذ جومار، أحد علماء الحملة الفرنسية الذين اشتركوا في وضع موسوعات "وصف مصر" هذه القبائل إلى نوعين:

الأول: العرب المزارعون.

والثاني: العرب المحاربون أو العربان الرعاة أو الرحل، ثم قام بتصنيف

النوع الأول إلى صنفين:

١ - القبائل التي استقرت في مصر منذ زمن بعيد، القبائل التي استقرت حديثاً، وقد ختم دراسته بقوله^(١): ولقد تبدو الملاحظات التي كانت موضوعاً لهذه المذكرة، والتي نمت بشكل متسلسل في مسرح الأحداث بهدف وحيد هو دراسة العرب وتقاليدهم قد تبدو بلا هدف ما لم تكن ترتبط بإطار عام، أو كانت قد اقتصرت على تقديم بعض النتائج التي تخلق روح الفارئ المصنف، ولكي نكتفي في هذه العجالة بأكثر هذه الملاحظات أهمية. فإن من الميسور أن نصنف إلى ما سبق أن العرب المستقرين في مصر يتزايدون أكثر فأكثر. سواء في أعدادهم أو قوتهم. أنهم سيستولون يوماً على السطوة إذا لم يوضع حد لوقف عروانهم.

وفي الواقع، فمهما تكن أصول وأقدار هؤلاء العرب سواء هؤلاء الذين يسكنون الخيام منهم أو أولئك الذين يفضون القرى، وسواء كانوا يررعون أو يستزرعون الأراضي، أو كانوا لا يشغلون إلا بالفواقل ونجارة الماشية ودواب الحمل، وسواء كانوا ينتمون إلى القبائل العربية القادمة من آسيا، أو كانوا من أولئك التي قدمت من شمال إفريقية، وأخيراً سواء تلك التي تعيش في حرب مع حكام البلاد - فإننا نرى أنه تتوقد فيهم جميعاً نفس الروح، وأنهم يرون أنفسهم أعلى قدراً من أبناء البلاد الشرعيين أو المولودين على ضفاف النيل، وأنهم ينظرون إلى مصر باعتبارها عقاراً خاصاً بهم، إن خلاص هذه البلاد يكمن في الانقسام الحالي بين هذه القبائل - الأمر الذي يعود بشكل خاص إلى غيبة زعيم يتولى قيادتهم

(١) انظر: وصف مصر. ترجمة: زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٨م، ص ٣٦٢: ٣٦٣.

ويكون في ذلك قوياً وقادراً للحد السكاني، وإذا كان هناك حدث هام قد جاء ليثبت اهتمام حكام مصر فقد تكون الإشارة الأولى كافية، لإطلاق الشرارة، وإذا كان يحق لنا أن نوازن بين الترجيحات عندما يتصل الأمر بالمستقبل، فلا بد أن ينظر المرء إلى هذا التطور كواحد من أكثر التطورات التي تتهدد الشرق احتمالاً.

أما عن طباع العرب كما صورتها، فسوف يرى القارئ أن هذه الصورة، لا تتفق في كثير مع ما اشتهر عن الأمة من النزاهة والصراحة، وغير ذلك مما منحه لهؤلاء القوم هذا العدد الكبير من الرحالة، ومع ذلك فقد أردت أن أنقل إلى القارئ بإخلاص، نفس الانطباع الذي تكون لدي وأنا بينهم في مخيماتهم، لقد كان على أن أقدم العرب كما رأيته في مصر، وليس كما هم في أماكن أخرى، أما الأفكار التي راودتني وأنا أراهم يسلكون، والانطباعات التي استولت علي أثناء تدويني هذه الأفكار، فقد احتفظت بها لنفسي، مقتنعا بأن للرحلة هدفا يختلف عن هدف المؤرخ، وأن عليه قبل كل شيء أن يولي اعتباره للمشاعر البسيطة التي شعر بها، ومما لا شك فيه أن بدو الصحراء الذين ينطبق عليهم هذا الوصف، وبخاصة أبناء شبه الجزيرة العربية، يقدمون ملامح مختلفة بعض الشيء عما قيل، وإنني أميل إلى الاقتناع، بأنهم ليسوا فقط أقل جشعاً، وبأن لهم تقاليد أكثر لياقة، ولكن وفوق ذلك بأنهم يمارسون كرم الضيافة، وبأنهم يصدقون في ارتباطاتهم، وفي بقية الأمور، بل إن هؤلاء الذين رأيته في مصر، أنفسهم لا تنقصهم مطلقاً الفضائل الأسرية، لكن وضع هؤلاء يختلف عن وضع الأولين، فثراء البلاد التي يترددون عليها وفي مقابل قحولة الصحراء يثير فيهم أكثر فأكثر الجشع والنفهم والبخل، وأمهات الغدر والخيانة وكل الجرائم، ومن جهة أخرى فإن مثال المصريين والمماليك، لم يفعل سوي أن أضاف إلي عيوبهم، فلقد ولد عندهم احتياجات كانوا يجهلونها في صحراواتهم وأذواقاً غريبة على تقاليدهم البسيطة والأبوية، والتي تشكل الطابع المميز للعرب، وهو طابع ملحوظ لحدّ ظل معهم على نفس حاله منذ زمان ليس تعيه الذاكرة، بون أن تعزريه سوى تحورات بالغة الرهافة، على الرغم من أن دين

النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم قد بوأ هذه الأمة عروشاً كثيرة، في آسيا وإفريقيا، وأوروبا.

٣ - العربان في عهد محمد علي:

وقد حذا محمد علي حذو الفرنسيين، فألزمهم الوقوف عند حدهم، وكانوا قد بلغوا في عهده من الجبروت والبأس حد النهاية، حتى كانوا يفرضون الإتاوات على سكان مصر، وكانوا يهددون بالزحف على القاهرة نفسها، وقد سلك محمد علي معهم مسلك المهادن أولاً، وعقد معهم الاتفاقيات، فهتكوا ستارها، وخاسوا بعهودهم، غير مبالين ولا هيابين، فعول على قمعهم وتأديبهم، وسير لقتالهم الفرسان والمشاة، فأخذت عليهم الأفاق، وسدت عليهم السبل، حتى اضطرتهم إلى التماس الصلح، واستمناح العفو فاستشترط عقد الصلح معهم أن يسكن كبار زعمائهم وشيوخهم مدينة القاهرة كرهائن، وأجرى عليهم الأرزاق والمرتبات لمعاشهم، فهدأت حالهم.

ولما غامر محمد علي بحروبه في السودان وجزيرة العرب والشام، عرض عليهم تشكيل فرق منهم، واقترح أن يدفع لهم الأجور مقابل خدمتهم؛ شريطة أن يأتي كل منهم بفرسه وبندقيته، ولقد أفادت هذه الفرق المساعدة للجيش المصري من الوجهة العسكرية، فالعربان هم أصلح الناس لمهمة استطلاع العدو ومطاردته أثناء الهزيمة أو معاكسته في أثناء انسحابه.